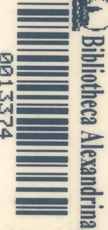
محمود درويش



أرى ما أريد

الطبعة الثالثة



دار العودة - بيروت



أرى ما أريد

محمود درويش

أرى ما أريد

(١٩٩٠)

دار العودة - بيروت

١٩٩٣/١٠/١

الطبعة الثالثة

يطلب من دار العودة - بيروت

كورنيش المزرعة - بناية ريڤييرا سنتر

تلفون: ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥

ص. ب: ١٤٦٢٨٤ / برقياً: العودة

. . وأنا أَنظُرُ خَلْفِي في هذا الليلْ
في أَوراق الأَشجار وفي أَوراق العُمرْ
وأَحَدِّقُ في ذاكرة الماء وفي ذاكرة الرملْ
لا أُبصرُ في هذا الليلْ
إلاَّ آخرَ هذا الليلْ
دَقّاتُ الساعة تَقْضُمُ عُمْري ثانيةً ثانيةً
وتقصِّرُ أيضاً عُمْرَ الليلْ
لم يبقَ من الليل ومنِّي وقتٌ نتصارعُ فيهِ . . وَعَلَيْهِ
لكنَّ الليلَ يعودُ إلى ليلتِهِ
وَأَنا أَسقطُ في حُفْرَةِ هذا الظلّ . .


رباعيات

.1

أَرى ما أُريدُ مِنَ الحَقْل. . إنِّي أَرى
جدائلَ قَمْحٍ تُمَشِّطُهَا الريحُ، أُغمضُ عينيَّ:
هذا السرابُ يُؤدِّي إلى النَهَوَنْدْ
وهذا السكونُ يُؤَدِّي إلى اللازَوَرْدْ

.2

أَرى ما أُريدُ من البحر. . إنِي أَرى
هُبوبَ النوارس عند الغروب، فأُغمض عينيّ:
هذا الضياعُ يؤدِّي إلى أَندلُسْ
وهذا الشراعُ صلاةُ الحمام عليّ. .

.3

أَرى ما أُريدُ من الليل. . إنِي أَرى
نهايات هذا الممرِّ الطويل على باب إحدى المُدُنْ
سأَرمي مُفَكِّرتي في مقاهي الرصيف، سأُجْلِسُ هذا الغيابْ
على مقعد فوق إحدى السفُنْ

.4

أرى ما أُريدُ من الروح: وَجْهَ الحجرْ
وَقَدْ حكَّهُ البرقُ، خضراءُ يا أَرضُ. . خضراءُ يا أَرضَ روحي
أَما كنتُ طفلاً على حافة البئْرِ يلعبُ؟
ما زلتُ أَلعب. . هذا المدى ساحتي، والحجارةُ ريحي

.5

أَرى ما أُريدُ من السلْم. . إني أَرى
غزالاً، وعشباً، وجدولَ ماءٍ. . . فأُغمض عينيّ:
هذا الغزال ينامُ على ساعديّ
وصيَّادُهُ نائم، قُرْبَ أَولادِهِ، في مكانٍ قصيّ

.6

أَرى ما أُريدُ من الحرب.. إني أَرى
سواعدَ أَجدادنا تعصُرُ النبعَ في حَجَر أَخضرا
وآباءنا يَرِثُون المياهَ ولا يُورثون، فأُغمض عينيّ:
إنَّ البلادَ التي بين كفيَّ من صُنْع كَفّيّ

.7

أَرى ما أُريدُ من السجن: أَيَّامَ زهرةْ
مَضَتْ من هنا كي تدلَّ غريبين فيّ
على مقعد في الحديقة، أُغمضُ عينيّ:
ما أَوسع الأَرض! ما أَجمل الأَرض من ثُقْب إبرةْ

.8

أرى ما أُريدُ من البرقِ.. إني أَرى
حقولاً تُفَتِّتُ أغلالَها بالنباتات، مَرْحى!
لأُغنيةِ اللوز بيضاءَ تهبط فوق دخان القرى
حماماً. حماماً نقاسِمُهُ قُوتَ أَطفالنا

.9

أرى ما أُريدُ من الحُبّ.. إني أَرى
خيولاً تُرَقِّص سهلاً، وخمسين غيتارةً تتنهَّدْ
وسرباً من النحل يمتصُّ توت البراري، فأُغمض عينيّ
حتى أَرى ظلَّنا خلف هذا المكان المُشَرَّدْ

.10

أَرى ما أُريد من الموت: إني أُحبُّ، وينشقُّ صدري
ويقفزُ منه الحصانُ الإروسيُّ أَبيضَ يركض فوق السحابْ
يطير على غيمة لا نهائية ويدور مع الأَزرق الأَبَدِيّ . .
فلا توقفوني عن الموت، لا تُرْجعوني إلى نجمةٍ من ترابْ

.11

أَرى ما أُريدُ من الدم: إني رأَيتُ القتيلْ
يخاطِبُ قاتِلَهُ مُذ أَضاءتْ رصاصتُه قَلْبَهُ: أَنتَ لا تستطيعْ
من الآن أَن تتذكر غيري. قتلتُكَ سَهْواً، ولن تستطيعْ
من الآن أَن تتذَكَّر غيري . . وأَن تتحمل وردَ الربيعْ

.12

أرى ما أُريدُ من المَسْرَحِ العبثيِّ: الوحوشْ
قضاةَ المحاكم، قُبَّعةَ الإمبراطور، أَقنعةَ العصر،
لونَ السماء القديمة، راقصةَ القصر، فوضى الجيوش
فأَنسى الجميع، ولا أَتذكَّر إلا الضحية خلف الستار..

.13

أرى ما أُريدُ من الشعر: كُنّا قديماً إذا استُشْهِد الشعراء
نُشَيِّعُهُمْ بالرياحين ثم نعود إلى شعرهم سالمين..
ولكننا في زمان المجلات والسينما والطنين نهيل التراب على شعرهم ضاحكين..
وحين نعود نراهم على بابنا واقفين..

.14

أَرى ما أُريدُ من الفجر في الفجر.. إنني أَرى
شعوباً تفتِّشُ عن خبزها بين خبز الشعوبْ
هو الخبز، يَنْسُلُنا من حرير النعاس، ومن قُطْن أَحلامنا
أَمِنْ حَبَّة القمح يبزغُ فجر الحياة.. وفجرُ الحروبْ؟

.15

أَرى ما أُريدُ من الناس: رغبتَهُمْ في الحنينْ
إلى أَيِّ شيء، تباطُؤهُمْ في الذهاب إلى شُغْلِهِمْ
وسُرْعَتهُمْ في الرجوع إلى أهلهمْ..
وحاجتهم للتحيَّةِ عند الصباح...

ربّ الأيائل
يا أبي.. ربّها

. . . مُسْتَسْلماً لخُطى أَبيكَ ذَهَبْتُ أَبحثُ عنكَ يا أَبتي هناكْ
عند احتراق أَصابعي بشموع شوْككَ، عندما
كان الغروبُ يَقُصُّ خَرُّوبَ الغروبِ، وعندما
كنا ـ أَنا وأَبوكَ ـ يا أَبتي وراءك وَالِدَيْكْ
أَنتَ المُعَلَّقُ فوق صُبَّار البراري من يديكْ
وعليكَ صَقْرٌ من مخاوفنا عليكْ
وعليكَ أَن ترث السماء من السماءْ
وعليكَ أَرضٌ مثل جلد الروح تثقُبُهُ زهورُ الهِنْدباءْ
وعليكَ أَن تختار فَأْسَكَ من بنادقهمْ عليكْ
وعليكَ أَن تنحاز، يا أَبتي، لفائدة الندى في راحتيكْ
ولقمحكَ المهجورِ حول معسكرات الجيش، فاصنعْ ما تشاءْ
بقلوب سَجَّانيكَ، واصمدْ فوق شوكك حين يقهرك الصهيلُ
حول الجهات الستِّ، واصمدْ، فالسهول لكَ السهولُ

□

. . وأبي خَجُولٌ، يا أَبي، ماذا يقولُ. . ولا تقولُ

حدَّثْتُهُ عنه فأَوماَ للشتاء، ودسّ شيئاً في الرمادْ

لا تُعْطني حُبّاً، همستُ، أُريدُ أن أَهب البلادَ

غزالةً. فاشرحْ بدايتَكَ البعيدةَ كي أَراك كما أَراك

أَباً يُعَلِّمني كتابَ الأَرض من أَلِفٍ إلى ياءٍ. . ويزرعني هناك.

لُغْزٌ هو الميلاد: ينبتُ مثل بَلُّوط يشقُّ الصخر في

عَتَبات هذا المشهد العاري ويصعَدُ. . ثم يكسره السوادْ

نَحْبُو ونَصْبُو. تنهضُ الأَفراس تركضُ في المدى. نكبو ونخبو

فمتى وُلِدْنا يا أَبي ومتى نموتُ؟ فلا يُجيبُ، هُوَ الخجولُ

والوقت ملْك يديه يُرْسِلُهُ إلى الوادي ويرجعه إليه

وَهُوَ الحديقةُ في مهابتها البسيطة. لا يحدِّثُني عن التاريخ في

أَيَّامِهِ: كُنَّا هنا قبل الزمان وههُنا نبقى، فتخضرُّ الحقولُ

رَبِّ الأَيائل. . رَبِّها في ساحة الدار الكبيرة يا أَبي!

فيغُضّ عني الطَرْفَ. يُصْلح غُصْنَ داليةٍ. يُقَدِّم للحصان شعيرَهُ

والماءَ. يَعْرِفُهُ على مَهَل، يلاطفه ويهمس: يا أَصِيلُ.

يتناولُ النعناعَ من أُمّي. يُدَخِّن تبغه. يُحْصي ثُرَيَّات العِنَبْ
ويقول لي: إهدأ! فأَغفُو فوق ركبته على خَدَرِ التَعَبْ..

□

أتذكَّرُ الأَعشابَ: يأخذني قطيعُ الأُقحوان إلى حَلَبْ
من ههُنا قطعتْ مُخَيلتي جبالَ الناي، خلف الناي أَعدو
أَعدو وراء الطير كي أَتعلَّم الطيرانَ. قد خَبَّأْتُ سرِّي

في ما يقول الأَوَّلون هناك، خلف التلِّ. كم أَبعدتني
عمَّا أُحاول أن أَكون ولا أَكون.. وأَنت تدري
أَني أُريدُ فوائدَ الأَزهار، قَبْلَ الملح. كم قرَّبْتَني

من نجمة العَبَث البعيدة، يا أَبي. لِمَ لَمْ تَقُلْ لي مَرَّةً
في العمر: يا ابني!.. كي أَطير إليكَ بعد المدرسةْ؟
لِمَ لَمْ تحاول أَن تربِّيني كما رَبَّيْتَ حقلك سمسماً، ذُرَةً، وحنطةْ

أَلانَّ فيكَ من الحروب توجُّسَ الجنديِّ من حَبَق البيوت؟
كُنْ سَيِّدي، يا سيِّدي، لأَفرَّ منك إلى الرعاة على التلالْ
كُنْ سَيِّدي لتحبَّني أُمّيْ.. وينسى إخوتي موز الهلالْ
كُنْ سيِّدي كي أَحفظ القرآن أَكثرَ.. كي أُحبَّ الإمرأَةْ

وأكون سيِّدها وأسجنها معي ! كن سيِّدي لأرى الدليلْ .
خَبَّأْتَ قلبك، يا أبي ، عني لأكبُر فجأة وحدي على شجر النخيلْ

□

شَجَرٌ، وأفكارٌ، ومزمارٌ . . سأقفزُ من يديكَ إلى الرحيلْ
لأسيرَ عكس الريح ، عكس غروبنا . . منفايَ أرضُ

أرضٌ من الشهوات ، كنعانيةٌ ، ترعى الأيائل والوعولْ . .
أرضٌ من الكلمات يحملها اليمام إلى اليمام . . وأنتَ منفَى
منفًى من الغزوات ينقلها الكلام إلى الكلام . . وأنت أرضُ
أرضٌ من النعناع تحت قصائدي ، تدنُو وتنأى ثم تدنو
ثم تنأى في آسم فاتحها، وتدنو في اسم فاتحها الجديدْ

كُرَةً تخاطفها الغزاةُ وَثبَّتُوها فوق أطلال المعابد والجنودْ
لو كُنْتَ من حَجَرٍ لكان الطقسُ آخرَ . . يا بن كنعان القديمْ

لكنهم كتبوا عليك نشيدَهُمْ لتكون «أنت» «هو» الوحيدْ
لمْ تأتِ سوسنةٌ لتشهد ، مَرَّةً ، مَنْ كان شاعِرُها الشهيدْ
سَرَقَ المؤرِّخُ، يا أبي ، لُغَتِي وسوْسَنَتي وأقصاني عن الوعد الإلهي

وبكى المؤرِّخُ عندما واجهتُهُ بعظام أسلافي : «إلهي . . يا إلهي

لِمَ لمْ يموتوا كُلُّهمْ لتكون لي وحْدِي . . ؟» . . أتغفر يا أَبي
لِيَ ما صَنَعْتُ بقلبكَ المثقوبِ بالصُبَّار حين كبرتُ وحْدِي

وذهبتُ وحدي كي أُطِلَّ على القصيدة من بعيد ؟
فَلِمَ اندفعتَ الآن في السفر الكبير وأَنتَ توراةُ الجذورْ
أَنت الذي ملأ الجرارَ بأَوَّل الزيت المُقدَّس، وابتكرتَ من الصخورْ
كَرْماً. وأَنت القائلُ الأَبديُّ : لا ترحل إلى صيْدَا وصُورْ ؟

أَنا قادمٌ حَيّاً ومَيْتاً، يا أَبي، تَوّاً . . أَتغفر لي جنوني
بطيور أَسئلتي عن المعنى ؟ أَتغفر لي حنيني
هذا الشتاءَ إِلى انتحارٍ باذخٍ ؟ شاهدتُ قلبي يا أَبي
وأَضَعْتُ قلبك يا أَبي، خَبأته عني طويلاً، فالتجأتُ إِلى القمرْ
قل لي : أُحبُّكَ، قبل أَن تغفو . فينهمر المطرْ

□

. . متداخلاً في صُوفِهِ البُنِّيِّ، مُتَّكِئاً على دَرَجِ الشجرْ
يرنو إِلى فِرْدَوْسِه المفقود، خلف يديه، يرمي ظِلَّهُ
فوق التراب ـ تُرابهِ ويشدُّهُ . . يصطادُ زهرة أُقحوانْ
بعباءة الظلِّ المراوغِ . أَيُّ صَيَّادٍ يغافل سارقَ الأَشجارِ!

أيّ أَبٍ أبي ! يرمي نِبَالَ الظلّ نحو ترابِهِ
المسروقِ . . يخطفُ منه زهرة أُقحوانْ !
ويعود قبل الليل . كم جيش جديد سوف يحتلُّ الزمانْ
يأتون كي يتحاربوا فينا . . هُمُ الأُمراءُ ، والشهداءُ نحنُ
يأتون ، يبنون القلاع على القلاع ، ويذهبون ، ونحْنُ نحْن
لكنَّ هذا الوحش يسرق جلدنا وينام فيه فوق خَيْش فراشنا
ويَعضُّنا ، ويصيح من وَجَع الحنين إلى عيون الأقحوانْ
يا أَرضُ ! لم أَسأَلك : هل رحلَ المكانُ من المكان ؟
لأَكون زائركِ الغريبَ على جِراب القادمين من الدخان
بيني وبين حقوليَ الشقراء مترٌ واحدٌ . . مترٌ مِقَصٌّ قَصَّ قلبي
أَنا من هنا . . ورأَيتُ أَحشائي تطلُّ عليَّ من زَغَبِ الذُرَةْ
ورأَيتُ ذاكرتي تَعُدُّ حُبُوبَ هذا الحقلِ والشهداءَ فيه
أَنا من هنا . أَنا ههُنا . . وأُمشِّطُ الزيتون في هذا الخريف
أَنا من هنا . وهنا أَنا . دَوَّى أَبي : أَنا من هنا .
وأَنا هنا . وأَنا أَنا . وهنا هنا . إِني أَنا . وأَنا هنا . وهنا

أَنا. وأَنا أَنا. وهنا أَنا. وأَنا هنا. إني هنا. وأَنا أَنا.

ودنا الصدى. كَسَرَ المدى. قامت قيامَتُهُ. صدى وجد الصدى

دَوَّى الصدى. . أَبداً هنا أَبداً هنا. وغدا الزمان غدا.

بدا شكلُ الصدى بلداً هنا ورد الردى، فاكسرْ

جدار الكون يا أبتي صدى حول الصدى؛ ولتنفجرْ :

أنا

مِنْ

هُنَا

وَهُنَا

هُنَا

وأَنَا

أَنَا

وَهُنَا

أَنَا

وأَنَا

هُنَا

□

الأَرضُ تكسرُ قِشْرَ بَيْضَتها وتسبَحُ بيننا

خضراءَ تحت الغيم. تأخذ من سماء اللون زينَتَها

لتسحرنا، هي الزرقاءُ والخضراءُ، تولد من خُرافتها

ومن قُرْبانِنا في عيد حنطتها. تُعَلِّمنا فُنُونَ البحث عن أُسطورة التكوين.

سَيِّدَةٌ على إيوانها المائيِّ.

سيدة المديح. صغيرة لا عمر يخدش وجهها. لا ثور

يحملها على قرنيه. تحمل نفسها في نفسها وتنام في أَحضانها

هِيَ. لا تودِّعنا ولا تستقبلُ الغرباء. لا تتذكَّرُ الماضي.

فلا ماضي لها. هي ذاتُها ولذاتِها في ذاتِها. تحيا فنحيا

حين تحيا حُرَّةً خضراءَ. لم تركب قطاراً واحداً معنا، ولا جملاً

وطائرةً. ولم تفقد وليداً واحداً. لم تبتعد عنا ولم تفقد

معادنها. ولم تخسر مفاتنها. هي الخضراء فوق مياهها الزرقاء..

فٱنهَضْ، يا أَبي، من بين أَنقاض الهياكِلِ واكتُب

ٱسمَكَ فوق خاتَمِها كما كتب الأَوائل، يا أَبي، أَسماءهم.

وانهض أَبي لتحبَّ زوجتك الشهيَّة من ضفائرها إلى خلخالها.
وانهض، فلا زيتون في زيتون هذي الأَرض غير ظلالها،
وانهض لتحمدها وتعبدها وتَرْوِي سيرة النسيان :
كم مَرَّ الغزاة وغيَّروك وغيّروا أَسماءها،
كم أصلحوا عربَاتهم وتقاسموا شهداءها،
وهي التي بقيت، كما كانت، لك امرأةً وأُماً يا أَبي
فانهض، ليرجعك الغناءُ
كشقائق النعمان في أَرض تَبنَّتْهَا وغَنَّتها لتسكنها السماءُ

□

.. ولِمَ القصيدةُ يا أَبي ؟ إنَّ الشتاءَ هو الشتاءُ
سأنام بعدك، بعد هذا المهرجان الهشِّ، تَسْوَدُّ الدماءُ
على تماثيل المعابد كالنبيذ.. وتكسر العُشَّاقَ نرجسةٌ وماءُ
وسيكسرون الآن غيرتهم وغربتهم وبَلُّور الحنين إلى حنينْ
وأَنا حزين يا أَبي كحمامة الأَبراج خارج سربها.. وأَنا حزينْ
وأَنا حزين، يا أَبي، سَلِّم على جَدِّي إذا قابلتَهُ
قَبِّلْ يديهِ نيابةً عني وعن أَحفاد «بَعْلٍ» أو «عَنَاةْ»

واملأ له إبريقه بالخمر من عنب الجليل أو الخليل، وقل له :

أُنثايَ تأبى أَن تكون إِطارَ صُورَتِها . وتخرج من رفاتي

عنقاءَ أُخرى. يا أَبي سَلِّمْ عليَّ هناك إِنْ قابلتَنِي

وانسَ انصرافي عن خيولك يا أَبي واغفر لأَعرف ذكرياتي

أَنت الذي خَبَّأْتَ قلبك يا أَبي عني، فآوتني حياتي

في ما أَرى من كائناتٍ لا تُكَوِّنُ كائناتي . .

والآن تسحبني أُبوَّتُك القصيَّةُ من يديَّ ومن شتاتي

بشِباك ظِلِّك نحو آجُرٍّ من الظلّ المعلَّق في القصيدهْ . .

لُغْزٌ هو الميلاد . . يا أَبتي سألتك : هل وُلِدْتَ

لتموت ؟ كم أَرجأْتَ عمرَك . . كم تعبتَ . . وكم وَعَدْتَ

بأَن تعيش غداً، ولكنْ لم تعش أَبداً. فما نَفْعُ القصيدهْ

تُعْلي سُقوفَ كهوفنا وتطيرُ من دَمِنا إلى لغة الحمامْ؟

يا سيِّد الشجر المسجَّى فوق ظلِّ الظلِّ من شَجَر الخزامْ

يا سيِّد الحجر الذي أَدْمَتْهُ كَفُّكَ . . هل خَرَجْتَ من الرخامْ

لتعود يا أَبتي إليه ؟ دُلَّني لِمَ جِئْتَ بي . . لم جئتَ بي

أَلِكَيْ أُنادي حين أَتعَبُ: يا أَبي ، يا صاحبي ؟

يا صاحبي ! مَنْ مات مَنَّا قبل صاحبِهِ . .

أَنا ؟

أَم صاحبي ؟

هدنة مع المغول
أمام غابة السنديان

كائنات من السنْدِيان تُطيلُ الوقوفَ على التلّ. . قَدْ
يصعَدُ العُشْبُ من خبزنا نحوها إنْ تركنا المكانَ، وَقَدْ
يهبط اللازوردُ السماويُّ منها إلى الظلِّ فوق الحصونْ.
مَنْ سيملأ فُخَّارنا بعدنا ؟ مَنْ يُغيِّرُ أعداءنا عندما يعرفونْ
أننا صاعدون إلى التلِّ كي نمدَحَ الله. .

في كائناتٍ من السنديانْ ؟

□

كُلُّ شيء يدلُّ على عَبَث الريح ، لكننا لا نَهُبُّ هباءْ
رُبَّما كان هذا النهارُ أخَفَّ علينا من الأمس، نحن الذينْ
قد أطالوا المكوثَ أمام السماء، ولم يعبدوا غير ما فَقَدُوا
من عبادتهمْ. رُبَّما كانت الأرضُ أوسعَ من وَصْفها. ربما
كان هذا الطريقُ دخولاً مع الريح. .

في غابة السنديانْ

□

الضحايا تَمُرُّ من الجانبيْن، تقول كلاماً أخيراً وتسقط في
عالَمٍ واحدٍ. سوف ينتصرُ النسْرُ والسنديانُ عليها، فلا بُدَّ مِنْ
هُدْنَةٍ للشقائق في السهل كي تُخْفِيَ الميتين على الجانبين، وكيْ
نَتَبَادَلَ بَعْضَ الشتائم قبل الوصول إلى التلّ. لا بُدَّ مِنْ
تَعَبٍ آدميّ يُحَوِّل تلك الخيولَ إلى. .

كائناتٍ من السنديانْ

□

الصدى واحدٌ في البراري : صدى. والسماءُ على حجر غرْبَةٌ
عَلَّقَتْها الطيورُ على لا نهايات هذا الفضاء، وطارتْ. .
والصدى واحدٌ في الحروب الطويلة: أُمٌّ، أَبٌ، وَلَدٌ صَدَّقوا
أَنَّ خلف البحيرات خيلاً تعود إليهم مُطَهَّمةً بالرجاء الأَخيرْ
فأَعدُّوا لأَحلامهم قهوةً تمنع النومَ. .

في شَبَح السنديانْ

□

كُلُّ حربٍ تُعَلِّمنا أن نحبَّ الطبيعةَ أكثرَ : بعد الحصارْ
نَعْتَني بالزنابقِ أكثرَ، نقطف قُطْنَ الحنان من اللَّوْزِ في
شهر آذارَ. نزرع غاردينيا في الرخام، ونَسْقي نباتاتِ جيراننا
عندما يذهبون إلى صَيْد غزلاننا. فمتى تَضَعُ الحربُ أوزارها
كي نفُكَّ خُصُورَ النساء على التلّ..

من عُقدة الرَّمز في السنديانْ ؟

□

ليت أعداءَنا يأخذون مقاعدنا في الأساطير، كي يعلموا
كم نُحبُّ الرصيفَ الذي يكرهون.. ويا ليتهم يأخذونْ
ما لنا من نُحاس وبرْق.. لنأخذ منهم حرير الضجرْ
ليت أعداءنا يقرأون رسائلنا مرتين، ثلاثاً.. ليعتذروا
للفراشة عن لعبة النار..

في غابة السنديانْ

□

كم أردنا السلامَ لسيِّدنا في الأَعالي. . لسيدنا في الكُتُبْ

كم أردنا السلامَ لغازلة الصُوف. . للطفل قرب المغارةْ

لِهُواة الحياة. . لأَولاد أعدائنا في مخابئهمْ. . للمَغُولْ

عندما يذهبون إلى ليل زوجاتهم، عندما يرحلونْ

عن براعم أَزهارنا الآن. . عَنَّا،

وعن وَرق السنديانْ

□

الحروب تُعَلِّمنا أن نذوق الهواء وأَن نمدح الماء. كَمْ

ليلةً سوف نفرح بالحُمُّص الصلْب والكستنا في جيوب معاطفنا؟

أَمْ سننسى مهارتنا في امتصاص الرذاذ؟ ونسأل : هَلْ

كان في وُسْع مَنْ مات أَلَّا يموت ليبدأ سيرتَهُ من هنا؟

رُبَّما. . رُبَّما نستطيع مديح النبيذ ونرفعُ

نخْباً لأَرملة السنديانْ

□

كُلُّ قَلْبٍ هنا لا يردُّ على الناي يسقط في
شَرَكِ العنكبوت. تمهَّلْ تمهَّلْ لتسمع رَجْعَ الصدى
فوق خيل العَدُوّ، فإنَّ المغُول يُحبُّون خمرتنا
ويريدون أن يَرْتَدوا جلد زوجاتنا في الليالي، وأنْ
يأخذوا شعراء القبيلة أسرى، وأنْ

يقطعُوا شَجَرَ السنديانْ

□

المغُول يريدوننا أن نكون كما يبتغون لنا أن نكونْ
حفنةً من هبوب الغبار على الصين أو فارسٍ، ويريدوننا
أن نُحبَّ أَغانِيَهُمْ كُلَّها كي يَحُلَّ السلامُ الذي يطلبونْ..
سوف نحفظ أَمثالهم.. سوف نغفر أفعالَهُم عندما يذهبونْ
مَعَ هذا المساء إلى ريح أَجدادهمْ

خلفَ أُغنيةِ السنديانْ

□

لَمْ يجيئوا لينتصروا، فالخرافةُ ليست خرافتَهُمْ. إنهم يهبطونْ
من رحيل الخيول إلى غرب آسيا المريضِ، ولا يعرفونْ
أَنَّ فِي وسعنا أَن نقاوم غازان ـ أَرغون أَلفَ سَنَةْ
بَيْدَ أَن الخرافةَ ليست خرافتَهُ. سوف يدخل عَمًّا قليلْ
دينَ قتلاهُ كي يتعلَّم منهم كلامَ قُرَيش . .

ومعجزةَ السنديانْ

□

الصَّدَى واحدٌ في الليالي. على قمّة الليل نُحْصي
النجومَ على صدر سَيِّدنا، عُمْرَ أَولادنا ـ كبروا سَنَةً بعدنا ـ
غَنَمَ الأَهل تحت الضباب، وأَعدادَ قتلى المغول، وأَعدادَنا
والصدى واحدٌ في الليالي: سنرجع يوماً، فلا بُدَّ من
شاعرٍ فارسيٍّ لهذا الحنين . .

إلى لُغَةِ السنديانْ

□

الحرُوبُ تعلِّمنا أن نحبَّ التفاصيل: شَكْلَ مفاتيحِ أبوابنا،
أن نُمَشِّطَ حنطتنا بالرموش، ونمشي خِفَافاً على أرضنا،
أن نقدِّسَ ساعاتِ قبل الغروب على شجر الزَنْزَلَخْت..
والحروبُ تُعَلِّمُنا أن نرى صورة الله في كل شيء، وأَنْ
نَتَحمَّل عبء الأساطير كي نُخْرِجَ الوحشَ..

من قصَّة السنديانْ

□

كم سنضحك من سُوس خُبْزِ الحروب ومن دُودِ ماء الحروب، إذا
ما انتصرنا نُعَلِّقُ أعلامنا السودَ فوق حبال الغسيلْ
ثم نَصْنَع منها جواربَ.. أما النشيدُ، فلا بُدَّ من رَفْعِهِ
في جنازات أبطالنا الخالدين.. وأما السبايا، فلا
بُدَّ من عَتْقهنَّ، ولا بُدَّ من مَطَرٍ

فَوق ذاكرة السنديانْ

□

خَلْف هذا المساء نرى ما تبقّى من الليل، عما قليلْ
يشرب القَمَرُ الحُرُّ شايَ المُحَارب تحت الشجَرْ
قَمَرٌ واحدٌ للجميع على الخندقين لَهُمْ ولنا، هَلْ لَهُمْ
خلف تلك الجبال بيوتٌ من الطين، شايٌ، ونايٌ؟ وهَلْ
عندهُمْ حَبَقٌ مثلنا يُرجع الذاهبين من الموت...

في غابة السنديانْ؟

□

.. وأخيراً، صعدْنا إلى التَلِّ. ها نحن نرتفع الآن
فوق جذوع الحكاية.. ينبت عُشْبٌ جديد على دمنا وعلى دمهِمْ.
سوف نحشو بنادقنا بالرياحين، سوف نُطَوِّق أَعناقَ ذاك
الحمام بأوسمة العائدين.. ولكننا
لم نجد أَحداً يقبل السِلْم.. لا نحن نحن ولا غيرنا غيرنا
البَنادِقُ مكسورة.. والحمامُ يطير بعيداً بعيداً
لم نجد أَحداً ههُنا..
لم نجد أَحداً..
لم نجد غابة السنديانْ!

جملة موسيقية

شاعرٌ ما يكتبُ الآن قصيدهْ
بَدَلاً مني ،
على صفصافة الريح البعيدهْ
فلماذا تلبسُ الوردةُ في الحائطِ
أوراقاً جديدهْ؟

□

وَلَدٌ ما طَيَّر الآن حمامهْ
بدلاً منا،
إلى أعلى، إلى سقف الغمامهْ
فلماذا تذرفُ الغابةُ هذا الثلجَ
حول الابتسامهْ؟

□

طائرٌ ما يحملُ الآن رسالهْ
بدلاً منّا،
إلى الأَزْرَقِ من أرض الغزالهْ
فلماذا يدخُلُ الصَيَّادُ فيَ المشهدِ
كي يرمي نِبَالَهْ؟

□

رَجُلٌ ما يغسلُ الآن القمرْ
بدلاً منّا،
ويمشي فوق بَلُّور النَهَرْ
فلماذا يَقَعُ اللونُ على الأَرضِ
لماذا نتعرَّى كالشجرْ؟

□

عاشقٌ ما يجرف الآن العشيقهْ
بدلاً مِنّي
إلى طين الينابيع السحيقهْ
فلماذا يقفُ السَرْوُ هنا
حارساً بابَ الحديقهْ؟

□

فارسٌ ما يُوقِفُ الآن حصانهْ
بدلاً مِنّي،
ويغفو تحت ظلِّ السنديانهْ
فلماذا يخرجُ الموتى إليْنا
من جدارٍ وخزانهْ؟

□

مأساة النرجس
ملهاة الفضة

عادوا . . .

من آخر النفَق الطويل إلى مراياهم . . وعادوا
حين استعادوا مِلْحَ إخوتهمْ ، فرادى أو جماعاتٍ ، وعادوا
من أساطيرِ الدفاع عن القلاع إلى البسيط من الكلامْ
لن يرفعوا ، من بعدُ ، أيديَهُمْ ولا راياتِهِمْ للمعجزات إذا أرادوا
عادوا ليحتفلوا بماء وجودهم ؛ ويُرتِّبوا هذا الهواءْ
ويزوِّجوا أبناءهم لبناتهم ؛ ويرقِّصوا جَسَداً توارى في الرخامْ
ويُعَلِّقوا بسُقُوفهمْ بَصَلاً ، وبامِيةً ، وثوماً للشتاءْ
وليحلبوا أثداء مَاعِزِهمْ ، وغيماً سالَ من ريش الحمامْ .
عادوا على أطراف هاجسهم إلى جُغرافيا السحرِ الإلهي
وإلى بساط الموز في أرض التضاريس القديمةْ :

جبلٌ على بحرٍ؛

وخلف الذكريات بحيرتان،

وساحلٌ للأنبياء ـ

وشارعٌ لروائح الليمون. لم تُصَب البلاد بأيِّ سوءْ.

هَبَّتْ رياح الخيل، والهكسوس هبُّوا، والتتَار مُقَنَّعينَ

وسافرينَ. وخلَّدوا أسماءهم بالرمح أو بالمنجنيق. . . وسافروا

لم يحرموا إبريل من عاداته: يلدُ الزهور من الصخور

ولزهرة الليمون أجراسٌ؛ ولم يُصب التُرابُ بأي سوءٍ ـ

أيِّ سوء، أيِّ سوءٍ بعدهم. والأرضُ تُورَثُ كاللغةْ.

هَبَّتْ رياحُ الخيل وانطفأت رياحُ الخيل، وانبثق الشعير من الشعيرْ.

عادوا لأنهمُ أرادوا واستعادوا النارَ في ناياتهم، فأتى البعيدُ

من البعيد، مُضَرَّجاً بثيابهم وهشاشة البلور، وارتفع النشيدُ ـ

على المسافة والغياب. بأيِّ أسلحة تُصَدُّ الروح عن تحليقها؟

في كل منفى من منافيهم بلادٌ لم يصبها أي سوءْ. . .

صنعوا خرافَتَهُمْ كما شاءوا، وشادوا للحصى أَلَقَ الطيور. وكُلَّما

مَرُّوا بنهرٍ. . . مَزَّقوهُ، وأَحرقوهُ من الحنين. . . وكُلّما
مَرُّوا بسَوْسَنَةٍ بكوا وتساءلوا : هل نحن شعب أَم نبيذٌ للقرابين الجديدةْ؟

يا نشيدُ! خذ العناصر كُلَّها

واصعدْ بنا

سفحاً فسفحاً

واهبط الوديان ـ

هيّا يا نشيدُ

فأَنت أَدرى بالمكانِ

وأَنت أَدرى بالزمانِ

وقُوَّةِ الأَشياء فينا. .

لم يذهبوا أَبداً ولم يصلوا؛ لأَن قلوبهم حَبَّاتُ لَوْزٍ في الشوارع. كانت الساحاتُ أَوسعَ من سماء لا تُغَطِّيهم. وكانَ البحر ينساهم. وكانوا يعرفون شمالهم وجنوبهم، ويطيِّرون حمائمَ الذكرى إلى أَبراجها الأُولى، ويصطادون من شهدائهم نجماً يُسَيِّرهم إلى وحشِ الطفولةِ. كلما قالوا: وصلنا. . . خرَّ أَوَّلُهُمْ على قوسِ البدايةِ. أَيها البطلُ ابتعدْ عنا لنمشي فيك

نحو نهاية أخرى، فتبّاً للبدايةِ. أيها البطل المضرّج بالبدايات الطويلةِ قُلْ لنا: كم مرةً ستكون رحلتُنا البدايةَ؟ أيها البطل المُسَجَّى فوق أرغفة الشعير وفوق صوف اللوز، سوف نحنِّطُ الجرحَ الذي يمتصُّ روحكَ بالندى: بحليبِ ليلٍ لا ينامُ؛ بزهرة الليمونِ، بالحجر المُدَمَّى؛ بالنشيد - نشيدنا؛ وبريشةٍ مقلوعة من طائرِ الفينيق -

إنَّ الأَرضَ تُورَثُ كاللغةْ!

.. ونشيدهم حَجَرٌ يَحُكُّ الشمسَ. كانوا طيِّبين وساخرينْ

لا يعرفون الرقص والمزمار إلَّا في جنازات الرفاق الراحلينْ

كانوا يُحبُّون النساء كما يحبون الفواكه والمبادىء والقططْ

كانوا يَعُدُّون السنين بعمر موتاهم. وكانوا يرحلون إلى الهواجسْ:

ماذا صنعنا بالقرنفل كي نكون بعيدَهُ؟ ماذا صنعنا بالنوارسْ

لنكون سُكَّانَ المرافىء والملوحةِ في هواءٍ يابسٍ: مستقبلين مُوَدِّعينْ؟

.. كانوا، كما كانوا، سليقةَ كلِّ نهرٍ لا يفتِّش عن ثباتْ

يجرون في الدنيا لعلَّ الدربَ يأخذهم إلى درب النجاة من الشتاتْ

.. ولأنهم لا يعرفون من الحياة سوى الحياة كما تقدِّمها الحياة

لم يسألوا عما وراء مصيرهم وقبورهم. ما شأنهم بعد القيامةْ؟

ما شأنهم إن كان إسماعيل أَمْ إسحقُ شاةً للإلهْ ؟

هذي الجحيم هي الجحيمُ. تعوَّدوا أن يزرعوا النعناعَ في قمصانهم

وتعلَّموا أن يزرعوا اللبلابَ حول خيامهم؛ وتعوَّدوا

حفظ البنفسج في أغانيهم وفي أحواض موتاهم. .، ولم

يُصَب النباتُ بأيِّ سوءٍ، أيِّ سوء، حين جَسَّدَهُ الحنينُ

لكنهم عادوا قبيل غروبهم؛ عادوا إلى أسمائهم

وإلى وضوح الوقت في سَفَر السنونو

. . أمَّا المنافي، فهي أمكنةٌ وأزمنةٌ تُغيِّر أهلها

وهي المساءُ إذا تدلَّى من نوافذَ لا تُطِلُّ على أحدْ

وهي الوصولُ إلى السواحل فوق مركبة أضاعتْ خيلها

وهي الطيورُ إذا تمادت في مديح غنائها، وهي البلدْ

وقد انتمى للعرش. . واختصر الطبيعة في جَسَدْ

. . لكنهم عادوا من المنفى، وإن تركوا هناك خيولَهُمْ

فلأنهم كسروا خرافتهم بأيديهم لكي يتسربوا منها وكي يتحرروا

ويفكِّروا بقلوبهم. عادوا من الأسطورة الكبرى لكي يتذكروا

أيامهم وكلامهم. عادوا إلى المألوف فيهم وهو يمشي

فوق الرصيف ويمضغُ الكسَلَ اللذيذَ ووقتَهُ من غير غايةْ

ويرى الزهورَ كما ترى الناسُ الزهورَ.. بلا حكايةْ

من زهرةِ الليمونِ تُولَدُ زَهْرةُ الليمون ثانيةً وتفتح في الظلامِ

نوافذَ الدورِ القديمةِ للمدى.. وعلى سلام العائلةْ

.. وكأنهم عادوا، لأن الوقت يكفي كي تعود القافلةْ

من رحلة الهند البعيدة. أصلحوا عرباتهمْ وتقدموا قبل الكلامْ

وعلى نوافذ آسيا الوسطى أضاءوا نجمةَ الذكرى، وعادوا

وكأنهم عادوا. وعادوا من شمال الشام عادوا

وكأنهم عادوا من الجُزر الصغيرة في المحيط الرحب، عادوا

من فتوحات بلا عَدَدٍ ومن سَبي بلا عدد، وعادوا

وكأنهم عادوا كعودة ظلّ مئذنة إلى صوت المؤذّن في المغيبْ

لم تسخر الطرقاتُ منهم مثلما سخر الغريبُ من الغريبْ

النهر هاجسهم، تَلَعْثَمَ أمْ تَقَدَّمَ، غاضَ أمْ فاض النهَرْ

ولراية الصفصاف عرَّافٌ يُعَلِّقُها على ما سال من ذهبِ القمرْ

.. ولهم حكايَتُهُمْ. وآدَمُ ـ جَدٌّ هجرتهم بكى ندماً. وللصحراء هاجَرْ

والأَنبياء تشرَّدوا في كل أرض، والحضارةُ هاجَرَتْ، والنخل هاجرْ

لكنهم عادوا قوافلَ،

أو رُؤى،

أَو فكرةً،

أَو ذاكرهْ

ورأوا من الصُوَر القديمة فتنةً أَو محنةً تكفي لوصف الآخرهْ

هل كانت الصحراءُ تكفي للضياع الآدميِّ؟ وصَبَّ آدمْ

في رَحْمِ زوجته، على مرأى من التُفَّاح، شَهْدَ الشهوةِ الأُولى. وقاومَ

موتَهُ. يحيا ليعبد رَبَّهُ العالي، ويعبد ربَّهُ العالي ليحيا

هل كان أَوَّلُ قاتلٍ ـ قابيلُ ـ يعرف أَن نومَ أَخيه مَوْتْ؟

هل كان يعرف أَنه لا يعرف الأَسماءَ، بعدُ، ولا اللغهْ

هل كانت امرأَةٌ يغطِّيها قميصُ التوتِ أَوَّلَ خارطهْ؟

لا شمسَ تحت الشمس إلَّا نور هذا القلب يخترق الظلالْ

كم من زمانٍ مرَّ كي يجدوا الجوابَ عن السؤال. وما السؤالْ

إلَّا جوابٌ لا سؤال لَهُ. وكانت تلك أَسئلةُ الرمال إلى الرمالْ

نُبُوءةً في ما يُرى أو لا يُرى. جَهْلاً يقول نبوءةً. والرملُ رملُ

ويغافل الصوفيُّ إمرأةً ليغزل صوفَ عتمتِهِ بلحيته، ويعلو

جَسَداً من البلّور. هل للروح أردافٌ وخاصرةٌ وظلٌّ؟

في الأَسر مُتَّسع لشمسِ الشكِّ مُذْ صاروا سكارى الباب ـ حُرّياتُهُمْ

هي ما تساقط من فضاء المُطْلَقِ المكسور حول خيامهم:

خُوَذٌ، صفيحٌ، زُرْقَةٌ، إبريقُ ماءٍ، أَسلحهْ

آثارُ إنسانٍ، غرابٌ، ساعةٌ رمليةٌ، عشبٌ يغطي مذبحهْ.

هلْ نستطيع بناء معبدنا على متر من الدنيا. . لنعبدْ

خالقَ الحشرات والأَسماء والأَعداء والسر المُخَبَّإِ في ذبابهْ؟

هل نستطيع إعادة الماضي إلى أطراف حاضرنا، لنسجدْ

فوق صخرتنا لمن كتب الزمان على الكتاب بلا كتابهْ؟

هل نستطيع غناء أُغنيةٍ على حجر سماويٍّ لنصمدْ

للأَساطير التي لم نستطِعْ تغييرها إلَّا بتأويلِ السحابهْ؟

هل يستطيع بريدُنا المائيُّ أَن يأتي على منقار هُدْهُدْ
ويعيدَ من سَبَإٍ رسالتَنَا، لنؤمن بالخُرافةِ والغرابهْ؟
.. في التيه مُتَّسع لأَحصنة تشبُّ من السفوح إلى الأَعالي
ومن السفوح تخر صوب القاعِ؛ مُتَّسعٌ لفرسان يحثون الليالي
إن الليالي كُلَّها ليلٌ. وإن الموت قتلٌ في الليالي.
... يا نشيدُ! خُذِ العناصرَ كُلَّها
واصعدْ بنا دهراً فدهراً
كي نرى من سيرة الإنسان ما سيُعيدُنا
من رحلةِ العبثِ الطويل إلى المكان - مكانِنَا،
واصعد بنا قِمَمَ الحراب لكي نُطلَّ على المدينةِ -
أَنتَ أدرى بالمكان، وقُوَّة الأَشياء فينا
أَنت أدرى بالزمان..
خذني إلى حَجَرٍ -
لأجلس قرب جيتار البعيدِ
خذني إلى قَمَرٍ -

لأعرف ما تبقّى من شرودي

خذني إلى وَتَرٍ -

يَشُدّ البحرَ للبرِّ الشريدِ

خذني إلى سَفَرٍ -

قليلِ الموت في شريانِ عودِ

خذني إلى مَطَرٍ -

على قرميد منزلنا الوحيدِ

خذني إليَّ لأنتمي لجنازتي في يوم عيدي

حذني إلى عيدي شهيداً في بنفسجة الشهيدِ

عادوا، ولكن لم أعُدْ...

خذني هناك إلى هناك من الوريد إلى الوريدِ.

.. عادوا إلى ما كان فيهم من منازلَ، واستعادوا

قَدَمَ الحرير على البحيرات المضيئة، واستعادوا

ما ضاع من قاموسهم: زيتونَ رُومَا في مخيّلة الجنودِ

توراةَ كنعانَ الدفينةَ تحت أنقاض الهياكل بين صُورَ وأورشليم

وطريقَ رائحةِ البخور إلى قُرَيْشَ تهبُّ من شامِ الورودِ

وغزالةَ الأبد التي زُفّت إلى النيل الشماليِّ الصعودِ

وإلى فحولةِ دجلةَ الوحشيِّ وَهْوَ يَزُفُّ سُومَرَ للخلودِ.

كانوا معاً

كانوا معاً يتحاربون، ويَغْلِبون، ويُغْلَبونْ

كانوا معاً

يتزوَّجون وينجبون سُلالةَ الأَضدادِ أو نسلَ الجنونْ

كانوا معاً

يتحالفون على الشمال، ويرفعون على الجحيمْ

جسرَ العبور من الجحيم إلى انتصار الروح فيهم كُلِّهم.

ويعاودون الحربَ حول العقل. مَنْ لا عَقْلَ في إيمانِهِ

لا روح فيه..

هل نستطيع تناسخَ الإبداع من جلجامشَ المحرومِ من عُشْبِ الخلودِ

ومن أَثينا بعد ذلك ؟ أين نحن الآن ! للرُّومان أَن يجدوا وجودي

في الرخام، وأَن يعيدوا نقطةَ الدنيا إلى روما، وأَن يلدوا جُدودي

من تفوُّق سيفهم.

لكنَّ فينا من أثينا

ما يجعل البحر القديمَ نشيدَنا

ونشيدُنا حَجَرٌ يَحُكُّ الشمسَ فينا

حَجَرٌ يشعُّ غموضَنا. أقصى الوضوحِ هو الغموضُ،

فكيف ندرك ما نسينا؟

عاد المسيحُ إلى العشاء، كما نشاء، ومريمٌ عادتْ إليهِ

على جديلتها الطويلة كي تُغَطِّيَ مسرحَ الرومان فينا.

هل كان في الزيتون ما يكفي من المعنى.. لنملأ راحتيهِ

سكينةً، وجروحَهُ حَبَقاً، وندلق روحَنا أَلَقاً عليهِ؟

.. ويا نشيدُ، خذِ المعاني كلَّها.

واصعدْ بنا جرحاً فجُرحاً

ضمِّدِ النسيانَ

واصعدْ ما استطعتَ بنا إلى الإنسانِ

حولَ خيامِهِ الأُولى

يُلَمِّعُ قُبَّةَ الأُفُقِ المُغَطَّى بالنحاسِ

لكي يَرَى

ما لا يَرَى

من قلبِهِ.

واصعد بنا، واهبط بنَا نحو المكان

فأنتَ أدرى بالمكان،

وأَنتَ أدرى بالزمان

.. وفي الممرات استعدُّوا للحصار. نياقُهم عطشتْ وقد حلبوا السرابْ

حلبوا السرابَ ليشربوا لَبَنَ النبوءةِ من مخيّلة الجنوبْ

في كل منفى قلعةٌ مكسورةٌ أَبوابُها لحصارهمْ، ولكُلِّ بابْ

صحراءُ تكملُ سيرةَ السفر الطويل من الحروب إلى الحروبْ

ولكل عَوْسَجَةٍ على الصحراءِ هاجَرُ هاجَرَتْ نحو الجنوبْ

مروا على أَسمائهم منقوشةً فوق المعادن والحصى

لم يعرفوها.. فالضحايا لا تصدِّق حَدْسها..

لم يعرفوها..

مَمْحُوَّةً بالرمل أحياناً، وأحياناً تغطيها نباتاتُ الغروبْ

تاريخُنا تاريخهم، لولا اختلافُ الطير في الرايات وحَّدتِ الشعوبُ ـ

دروبَ فكرتها. نهايتُنا بدايتنا. . .

وإنَّ الأرضَ

تُورَثُ

كاللغهْ. .

لو كان ذو القرنين ذا قرن، وكان الكونُ أكبرْ

لتشرَّقَ الشرقيُّ في ألواحِهِ. . وتغرَّبَ الغربيُّ أكثرْ

لو كان قيصرُ فيلسوفاً كانت الأرضُ الصغيرةُ دارَ قيصرْ.

تاريخُنا تاريخنا. .

ولَنخلة البدويِّ أن تمتدَّ نحو الأطلسيِّ

على طريق دمشقَ كي نشفى من الظمأ المميت إلى غمامهْ.

تاريخُنا تاريخهم

تاريخهم تاريخُنا

لولا الخلافُ على مواعيدِ القيامهْ !

من وحَّد الأَرضَ العنيدة خارج السيفِ المُرَصَّع بالحماسةِ ؟

لا أَحَدْ . . .

من عاد من سَفَرٍ إلى حَبَقِ الطفولةِ ؟

لا أَحَدْ . . .

من صاغَ سيرته بمنأى عن هُبُوب نقيضها وعن البطولةِ ؟

لا أحدْ . .

لا بُدَّ من منفى يَبيضُ لآلىء الذكرى ويختزلُ الأَبَدْ

في لحظة تسعُ الزمانَ،

. . لعلَّهم كتبوا على أسمائهم أسماءَهم،

وتذكروا في فضة الزيتون أَوَّلَ شاعرٍ سَجَّى هناكَ سماءهم .

يا بحر إيجةَ، عُدْ بنا يا بحرُ . . قد نبحتْ كلابُ العائلاتْ

لتعيدَنا من حيث هَبَّتْ ريحُنا . . فالنَّصْرُ مَوْتْ

والموتُ نصرٌ في هِرَقْلَ . . وخطوةُ الشهداء بَيْتْ.

نحن الذين أتوا لكي يأتوا وينتصروا . . رمتنا الكاهناتْ

بشمال غربتنا ولم يَسْأَلْنَ عن زوجاتنا. من ماتَ ماتَ،

ومن تذكَّر بيتَهُ قتلَ المزيد من العجائز والبناتْ

أَلقى بأَطفال المدينة من أسرِّتِهم إلى الوادي السحيق

ليعود قبلَ الوقتِ من طروادةِ الشيطانِ؛

هل خُنَّا نظامَ ضميرنا

لتخوننا زوجاتُنا؟

كان الضميرُ الصَّلْبُ جسر عبورنا،

وسفينةً حملت إليهنَّ البخورَ وعطرَ هيلينَ الجميلهْ.

النصر موت كالهزيمة، والجريمة قد تقود إلى الفضيلهْ.

يا بَحْرُ! أَنتَ تُزيِّنُ القتلى بقاتلهم، أَعِدْنَا أَيها البحرُ القديمُ

إلى نُباح كلابنا في أَرضنا الأُولى. وتابعْ أَيها البحرُ القديمُ

مغامرات البحث عمَّا ضاعَ من أسطولنا... وزوارق الصيد القديمةِ،

عن رجال أَصبحوا شجراً من المرجان في القيعانِ،

أَما نحن، فاحملْنا لنرجعَ

من حروبِ الذَّودِ عن عرشِ السرير إلى فراشِ نسائنا

وإلى قماشِ الحورِ أَخضرَ في الرمادِ وفي رؤى شعرائنا.

لا بد من بَرٍّ لنرسُوَ فوق خطوتنا ونُنْدُقِ دارنا
فالضوء ـ هذا الضوء، لا يكفي لنقطف فيه توتَ ديارنا.

. . . كانوا هناك يحاورون الموجَ كي يتشبَّهوا بالعائدين من المعارك تحت قوس النصر. لم تذهب منافينا سدى أبداً، ولم نذهب إلى المنفى سدى. سيموت موتاهم بلا ندمٍ على شيءٍ. وللأحياءِ أن يَرِثُوا هُدوءَ الريح، أن يتعلموا فتح النوافذ، أن يروا ما يصنع الماضي بحاضرهم، وأن يبكوا على مهلٍ على مهلٍ لئلاً يسمع الأعداءُ ما فيهم من الخزف المكسَّر. أيها الشهداءُ قد كنتم على حَقٍّ، لأن البيت أجملُ من طريقِ البيتِ، رغمَ خيانةِ الأزهار، لكنَّ النوافذَ لا تُطلُّ على سماء القلب. . والمنفى هو المنفى هنا وهناك. لم نذهب إلى المنفى سُدىً أبداً، ولم تذهبْ منافينا سُدىً

والأرضُ
تُوْرَثُ
كاللغةْ !

. . لم يُشْبهوا الأسرى، ولم يتقمَّصُوا حريةَ الشهداءِ. لم يتخلَّصوا من

صيف وحشتهم. لماذا أشعلوا الجبلَ البعيد بنارِ وحشتهم، وغـابوا حين لم يجدوا لمنحدراتهم طُرُقاً تُوزِّعهم على الوديـان ؟. قد يـأتي الرعـاةُ الأولون إلى الصدى. قد يعثرون على بقايا صوتهم وثيابهم، وعلى زمان سلاحهم، وعلى تعرُّج نايِهِمْ. مِنْ كُـلِّ شعبٍ أَلَّفوا أسـطورةً كي يشبهوا أبـطالها، في كـلِّ حربٍ مـاتَ منهم فارسٌ، لكنَّ لـلأنهـار وِجْهَتَهـا. وليس الأمس أمس ليسكنوا أعلى قليلاً من مَصَبِّ النهرِ..

جـيـتـاراتُـهُـمْ فَـرَسٌ وأنـدلُسٌ عـلى قـدَمَـيْ

فـتـاةِ الـريـحِ دُقِّـيـنـا عـلى إِبَـرِ

الـصـنـوبـرِ كـي نُـحِـبَّ حـيـاتَـنـا دُقِّـي الـهَـوَاءَ

بـصَـنْـدَلِ الـغـابـات دُقِّـيـنـا تَـرِقَّ الـروحُ

فـيـنـا نـتـركِ الـمـيـنـاء لـلمـيـنـاء دُقِّـيـنـا

بـايـقـاع النبيـذ عـلى سـواد الســرِّ بـيـن الأبـيـضـيـن

وَخـلِّصـيـنـا الآن مـن مُـرْجـانِ واديـكِ

الـكـبـيـر وعَـلِّمـيـنـا مـهـنـةَ الـفَـرَحِ الـمُـسَـلَّح

بـالـدم الـغـجـريِّ دُقِّـيـنـا ودُقِّـي مـا يُـطلُّ

مــن الــقــلوب بــكــعــبــك الــعــالــي لــتــلــتــفــت

الــشــعــوبُ إلــى بــدايــة حــربــهــا: رَجُــلٌ

يــفــتــش فــي الــبــراري عــن ســكــيــنــتــه

ويــســكــن امــرأهْ

. . وعلى أَعـالي الموج، مـوج البحر والصحـراء كـانـوا يـرفعـون جـزيـرةً لوجودهم.

إني وقد دافعتُ عن سَفري إلى قَدَري أدافع عن نشيدي

بين النخيل وظلِّه المثقوبِ. من عدمي سأمشي من جديدِ

نحو الوجود ـ يقول شاعرهم وقد عادوا ـ سأترك للبعيدِ

ولزهرة الليمون جِسْرَ الأَزرقِ المكسورِ بالأَمطار. مُرُّوا

يا منشدونَ، إذا استطعتم أن تُعيدوا

للخيول صهيلها؛ مُرُّوا إذاً يا منشدونْ

الخيلُ تلهثُ خلف قلبي وهو يقفز من يديَّ إلى السدَوْدْ

ها نحن نحن، فمن يغيِّرنا؟ نعودُ ولا نعودْ

ونسير فينا. . .

عندما يأتي نهارٌ واحدٌ لا موتَ فيه

وليلةٌ لا حلمَ فيها، نبلغ الميناءَ محترقين بالوردِ الأَخيرِ.

وكأَنهم عادوا،

لأَن البحر يهبط عن أَصابعهم وعن طرف السريرِ

كانوا يرون بيوتهم خلفَ السحابِ

ويسمعون ثُغاءَ ماعزهم، وكانوا

يتحسَّسون قُرونَ غزلانِ الحكايةِ..

يضرمون النارَ فوق التَّلِّ. كانوا

يتبادلون الهالَ. كانوا يعجنونَ فطائرَ العيد السعيدِ

أَتذكرون؟

أَيامَ غربتنا هناك ؟ ويرقصون على الحقائبِ ساخرينْ

من سيرة المنفى البعيد ومن بلاد سوف يهجرها الحنينْ

هل تذكرون حصارَ قرطاجَ الأَخيرْ ؟

هل تذكرون سقوطَ صورْ

وممالكَ الإِفرنجِ فوق الساحلِ السوريِّ، والموتَ الكبيرْ

في نهر دجلةَ عندما فاضَ الرمادُ على المدينةِ والعصورْ؟

«ها نحن عدنا يا صلاح الدين» . .

فابحث عن بَنِينْ.

كانوا يعيدون الحكاية من نهايتها إلى زمن الفكاهةْ

قد تدخل المأساةُ في الملهاة يوماً

قد تدخل الملهاةُ في المأساة يوماً . .

في نَرْجسِ المأساة كانوا يسخرونْ

من فِضَّة الملهاة، كانوا يسألون ويسألونْ:

ماذا سنحلم حين نعلم أَن مريمَ إمرأةْ ؟

كانوا يشمّون الحشائشَ وهي تفتح في الجدار ربيعَها وجروحَهم

وتعيدهم من كل منفى. لَسْعَةُ القُرَّاصِ تشبهُ لسعةَ الأَفعى

ورائحةُ الحَبَقْ

هي قهوة المنفيّ. . ممشى للعواطف حين تمشي في منازلها. . .

وصلنا !

صَفَّقُوا لكلابهم، لبيوت عودتهم، لأَجدادِ الحكايةِ، للمحاريث القديمةْ،

لاحتكاك البحر بالبصل المُعَلَّق فوق أَسلحة قديمهْ.

ما كان كانَ. ومازحَ الأَزواجُ زوجاتِ الجنازاتِ:

انتهينا من دموع النادباتِ، الراقصاتِ، الباكياتْ

نروي، إذاً، رَكْضَ القلوبِ مع الخيول إلى هبوب الذكرياتْ

نروي صُمُودَ هِرَقْل في دمه الأَخيرِ وفي جنون الأمهاتْ

ونَكُونُهُ،

ونكونُ أُوليسَ النقيضَ إذا أَرادَ البحرُ ذلك يا بناتْ

نروي ونروي، حينما نروي، نداءَ القائد الكُرديِّ

للمتردِّد العربيِّ: هاتْ

سيفاً

وخُذْ مني الصلاةَ على النبيِّ وصَحْبِهِ ونسائِهِ

وخذِ الزكاةْ.

.. ضحكوا كثيراً: قد يكون السجن أَجمل من بساتين المنافي

ورأوا نوافذهم تطلّ على فُكاهتهم وتُوقد ورْدَها حول الضفافِ

ما كان كانَ، سيقفزون على السلالم؛

يفتحون خزائن الذكرى

وصندوقَ الثيابِ

يُلَمِّعُون مقابِضَ الأَبواب أَحياناً،

وأَحياناً يَعُدُّون الخواتمْ

كبُرَتْ أَصابعُهُم مع الأَيام وانتفخت محاجرهم

ولم يجدوا على صَدَأ المرايا والزجاج وجوههم.

حسناً،

ستتسع الحديقةُ عندما يصلون بعد هنيهةٍ قبل النشيدْ

وسينظرون وراءهم:

ها نحن نحن، فمن سيُرجِعُنا إلى الصحراءِ؟

سوف نُلَقِّن الأَعداء درساً في الزراعة وانبثاق الماء من حجرٍ. سنـزرع فلفلاً في خوذة الجنديِّ.. نزرعُ حنطةً في كل منحدرٍ لأَنَّ القمح أَكبـر من حدود الإِمبراطورية الحمقاءِ في كل العصورِ. سنقتفي عادات موتانا ونغسل فضَّة الأَشجار من صدأ السنينِ...

بلادُنا هي أَن تكون بلادَنا

وبلادنا هي أَن نكون بلادَها

هي أَن نكونَ نباتَها وطيورَها وجمادَها

وبلادُنا ميلادُنا

أَجدادُنا

أَحفادُنا

أَكبادُنا تمشي على القندول أَو زغبِ القطا،

وبلادُنا هي أَن نُسيِّج بالبنفسج نارَها ورمادَها

هي أَن تكون بلادَنا

هي أَن نكون بلادَها

هي جَنَّةٌ

أَو محنةٌ

سَيَّان ـ

سوف نُعَلِّم الأَعداءَ تربيةَ الحمام إذا استطعنا أَن نُعَلِّمهمْ. وسوف ننام بعد الظهر تحت عريشةِ العنبِ الظليلةِ، حولنا قططٌ تنام على رذاذِ الضوءِ. أحصنةٌ تنام على انحناء شرودها. بَقَرٌ ينامُ ويمضغ الأَعشابَ. ديكٌ لا ينام

لأن في الـدنيا دجـاجاتٍ . وسـوف ننامُ بعـد الـظهـرِ تحتَ عـريشـةِ العنبِ
الظليلةِ. كمْ تعبنا . . كم تعبنا من هواء البحر والصحراءِ ـ
. . كانوا يرجعُونَ
ويحلمون بأنهم وصلوا
لأن البحر ينزل عن أصابعهم وعن أكتاف موتاهم
وكانوا يشهدون، فُجاءَةً: ريحانة البطل المسجّى فوق خطوته الأَخيرةْ
أهنا يموت على مسدسه وسُندسِهِ وعَتْبَتِهِ الأَخيرةْ ؟
أهنا يموت هنا ؟ هنا والآن في شمس الظهيرةْ
والآن، هَزَّت إصبعاه بشارةِ النصر الأَخيرةْ
بوَّابةَ البيتِ القديم، وهزَّ أَسوار الجزيرةْ.
الآن سدَّدَ آخرَ الخطوات نحو الباب . . واختتم المسيرةْ
برجوع موتانا. ونامَ البحرُ تحت نوافذ الدّور الصغيرةْ
. . يا بحرُ ! لم نخطىء كثيراً . . أَيها البحرُ القديمْ
لا تُعْطِنا، يا بحرُ، أَكثر من سِوانا . . نحن ندري
أَن الضحايا فيك أَكثرُ. والمياهُ هي الغيومْ

. . كانوا كما كانوا. وكانوا يرجعون ويسألون كآبةَ الأقدارِ :

هل لا بُدَّ من بطلٍ يموت لتكبر الرؤيا وتزداد النجومْ

نَجْماً على راياتنا ؟

لم يستطيعوا أن يضيفوا للنهايةِ وردةً،

ويغيِّروا مجرى الأساطير القديمة :

فالنشيدُ هو النشيدْ :

لا بُدَّ من بطلٍ يخرُّ على سياجِ النصرِ

في أَوج النشيدْ.

. . يَا أيها البطل الذي فينا. . تَمَهَّلْ !

عِشْ ليلةً أُخرى لنبلغ آخر العمر المُكَلَّلْ

ببداية لم تكتملْ؛

عِشْ ليلةً أُخرى لنكملَ رحلةَ الحُلُم المُضَرَّجْ

يا تاجَ شوكتنا؛ ويا شَفَقَ الأساطيرِ المُتَوَّجْ

ببدايةٍ لا تنتهي. يا أيها البطلُ الذي فينا. . تمهَّلْ !

عِشْ ساعةً أُخرى لنبدأ رقصةَ النصرِ المُنَزَّلْ

لم ننتصرْ، بعدُ، انتظرْ يا أيها البطلُ انتظرْ

فعلامَ ترحلْ

قبل الوصولِ بساعةٍ ؟

يا أيها البطلُ

الذي

فينا

تمهَّلْ !

. . ما زالَ فيهم من منافيهم خريفُ الاعترافْ

ما زال فيهم شارعٌ يفضي إلى المنفى . .

وأنهارٌ تسير بلا ضفافْ

ما زال فيهم نرجسٌ رخوٌ يخاف من الجفافْ

ما زال فيهم ما يغيِّرهم إذا عادوا ولم يجدوا :

الشقائق ذاتَها

وَبَرَ السفرجلة العنيدة ذاتَها

والأقحوانةَ ذاتَها

والأكيدنيا ذاتَها

وسنابلَ القمحِ الطويلةَ ذاتَها

والبيلسانةَ ذاتَها

وجدائلَ الثومِ المجفَّف ذاتَهَا

والسنديانَةَ ذاتَها

والأبجديةَ ذاتَها

.. كانوا على وشك الهبوط إلى هواءِ بيوتهم..

من أيِّ حلم يحلمون ؟

بأيِّ شيءٍ يدخلون حدائقَ الأبوابِ

والمنفى هو المنفى

.. وكانوا يعرفون طريقَهم حتى نهايته وكانوا يحلمونْ

جاءوا من الغد نحو حاضرهم.. وكانوا يعرفونْ

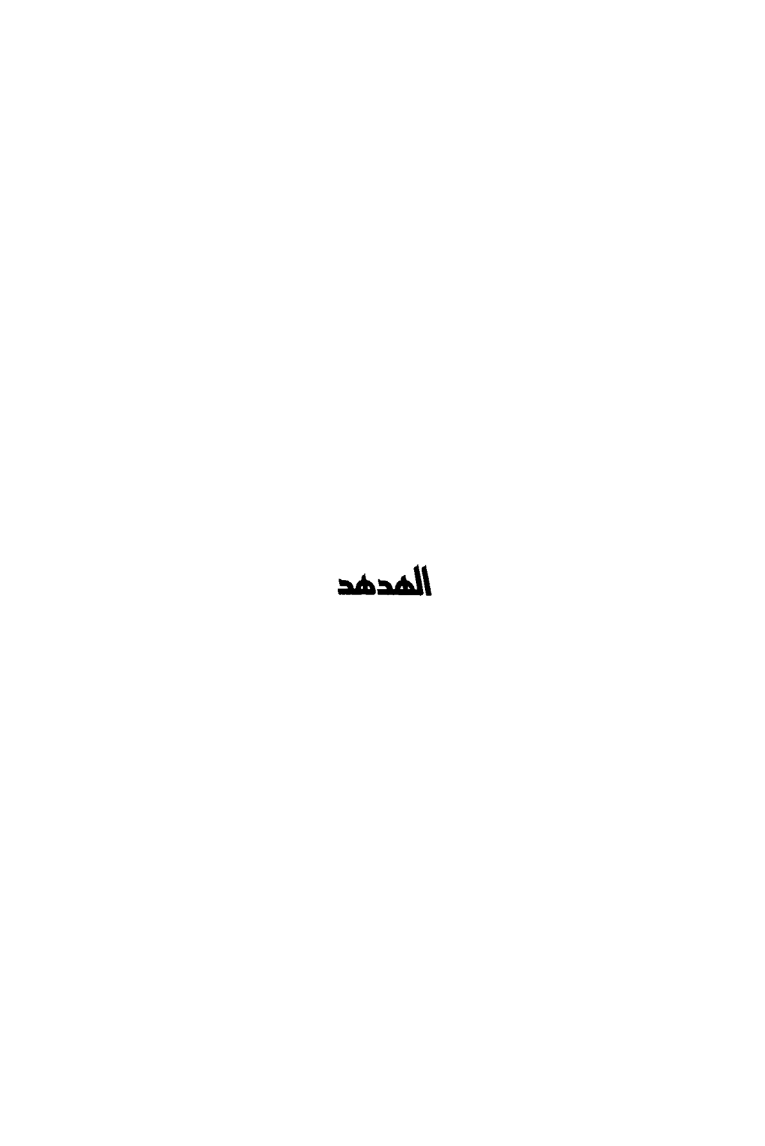
ما سوف يحدث للأغاني في حناجرهم.. وكانوا يحلمونْ

بقرنفُل المنفى الجديدِ على سياجِ البيت، كانوا يعرفونْ

ما سوف يحدث للصقور إذا استقرَّت في القصور، ويحلمونْ

بصراعِ نرْجِسِيهم مع الفردوس حين يصير منفاهم، وكانوا يعرفونْ
ما سوف يحدث للسنونو حين يحْرقه الربيعُ، ويحلمونْ
بربيع هاجسهم يجيءُ ولا يجيءُ، ويعرفونْ
ما سوف يحدُث حين يأتي الحُلْمُ من حُلُمٍ
ويعرف أنه قد كان يحلمُ؛

يعرفُون، ويحلمُون، ويرجعُون، ويحلُمون، ويعرفُون، ويرجِعُون، ويرجعُون، ويحلُمون، ويحلمُون، ويرجعُونْ.



الهدهد

لم نَقْتَرِبْ من أرض نجمتنا البعيدةِ بَعْدُ. تأخذُنا القصيدةْ
من خُرْمِ إبْرَتِنا لِنَغْزِلَ للفضاء عباءَةَ الأُفُق الجديدةْ،
أَسْرى، ولو قَفَزَتْ سنابلُنا عن الأَسوار وانبثق السنونُو
من قَيْدنا المكسورِ، أسرى ما نحبُّ وما نريدُ وما نكونُ...
لكنَّ فينا هُدْهُداً يُملي على زيتونةِ المنفى بريدَهْ.
عادتْ إلينا من رسائِلنا رسائلُنا، لنكتب من جديد
ما تكتبُ الأَمطارُ من زَهْرٍ بدائِيٍّ على صخر البعيد
ويسافِرُ السَّفَرُ ـ الصدىْ منَّا إلينا. لم نكن حَبَقاً ـ
لِنَرْجِعَ في الربيع إلى نوافذنا الصغيرة. لم نكن ورقاً ـ
لتأخذنا الرياحُ إلى سواحلنا. هنا وهناك خطٌّ واضحٌ
للتيهِ. كم سنةً سنرفع للغموض العذبِ موْتانا مرايا ؟
كم مَرَّةً سنحمِّل الجرحى جبالَ الملح كي نَجِدَ الوصايا ؟

عادت إلينا من رسالتِنا رسالَتُنا. هنا وهناك خطّ واضحُ ـ
للظلِّ. كم بحراً سنقطع داخل الصحراء ؟ كَمْ لوحاً سَنَنْسَى ؟
كم نبياً سوف نَقتُلُ في ظهيرتنا ؟ وكم شعباً سنُشْبه كي نكونَ ـ
قبيلةً؟ هذا الطريقُ ـ طريقُنا قَصَبٌ على الكلمات يرفو
طَرَفَ العباءة بين وحْشتنا وبين الأرض إذ تنأى، وتغفو
في زَعْفَران غُرُوبنا. فَلْنَنْبَسطْ كَيَدٍ لنرفع وقتنا للآلهةْ. .
أنا هُدْهُدٌ ـ قال الدليلُ لسيِّد الأشياء ـ أبحثُ عن سماء تائهةْ.
لم يبق منَّا في البراري غيرُ ما تجد البراري
منا : بقايا الجِلْد فوق الشوك، أُغنيةَ المحارِبِ للديارِ
وفمَ الفضاء. أَمامنا آثارُنا. ووراءنا صَدَفُ العَبَثْ. . .
أنا هُدْهُدٌ ـ قال الدليل لنا ـ وطار مع الأشعَّة والغبارِ
من أَين جئنا ؟ يسأل الحكماءُ عن معنى الحكاية والرحيلِ
وأَمامنا آثارنا، ووراءنا الصفصافُ. من أسمائنا نأتي إلى
أسمائنا ونخبىءُ النسيانَ عن أبنائنا. تَثِبُ الوعولُ من الوعولِ ـ
على المعابد. والطيُورُ تبيض فوق فكاهة التمثال. لم نسأل لماذا

لم يُولَدِ الإنسانُ من شَجَرٍ ليرجعَ؟ أَنْبَأَتْنَا الكاهناتُ

أَنَّ القلوب تُزَان بالميزان في مصر القديمة، أَنبأتنا الكاهناتُ

أن المسلَّة تُسْنِدُ الأُفُقَ المُهَدَّدَ بالسقوط على الزمان. وأَننا

سنُعِيدُ رحلتنا هناك على الظلام الخارجيِّ. وأَنبأتنا الكاهناتُ

أَن الملوكَ قضاتُنا، وشهودَنا أَعداؤُنا. والروحَ يحرسُها الرعاةُ

جسرٌ على نهرين رحلتُنا. ولم نولد لتمحونا وتمّحيَ الحياةُ..

أنا هُدْهُدٌ - قال الدليل - سأهتدي للنبع إن جفَّ النباتُ

قلنا له: لسْنا طيوراً. قال: لن تصلوا إليه، الكُلُّ لَهْ

والكُلُّ فيهِ، وَهْوَ في الكُلِّ، آبحثوا عنه لكي تجدوهُ فيهِ، فَهْوَ فيهِ

قلنا له: لسنا طيوراً كي نطير. فقال: أَجْنحتِي زماني

والعشق نار العشق، فاحترِقوا لتلقوا عنكمُ جَسَدَ المكانِ

قلنا له: هل عُدْتَ من سبإٍ لتأخذنا إلى سبإٍ جديدة؟

عادت إلينا من رسائِلنا رسالتُنا ولم ترجع.. ولم ترجعْ

وفي اليونان لم تفهم أرسْطُوفَان. لم تجدِ المدينة في المدينة

لم تجد بَيْتَ الحنان لكي تُدَثِّرنا حريراً من سكينة

لم تدرك المعنى فمسَّكَ هاجسُ الشعراء: «طيري
يا بنتَ ريشي ! يا طيورَ السهل والوديان، طيري
طيري سريعاً نحو أَجنحتي وطيري نحو صوتي». إنَّ فينا
شبقاً إلى الطيران في أَشواقنا. والناسُ طيرٌ لا تطيرُ...
يا هُدهدَ الكلمات حين تفرِّخُ المعنى وتخطفنا من اللغة الطيورُ
يا آبن التوتّر حين تنفصل الفراشةُ عن عناصرها ويسكنها الشعورُ
ذوِّبْ هنا صلْصالَنا ليشقَّ صورةَ هذه الأَشياءِ نورُ
حلِّقْ لتتَّضحَ المسافةُ بين ما كنّا وما سيكون حاضرُنا الأَخيرُ
ننأى، فندنو من حقيقتنا ومن أَسوار غربتنا. وهاجِسُنا العبورُ
نحن الثنائيُّ السماءُ ـ الأَرضُ، والأَرضُ ـ السماءُ. وحولنا سورٌ وسورُ
ماذا وراء السور؟ علَّم آدمَ الأَسماءَ كي يتفتَّح السرُّ الكبيرُ
والسرُّ رحلتنا إلى السريِّ. إنَّ الناسَ طيرٌ لا تطيرُ
أَنا هُدْهُدٌ ـ قال الدليل ـ وتحْتنَا طوفانُ نوحٍ. بابلُ.
أَشلاءُ يابسةٍ. بُخارٌ من نداءات الشعوب على المياه. هياكلُ
ونهايةٌ كبدايةٍ كبدايةٍ لنهايةٍ. حلِّقْ لينسى القاتلُ

قتلاهُ. حلِّقْ فوقنا. حلِّقْ لينسى الخالقُ المخلوق

والأَشياءَ والأَسماءَ في أسطورة الخلق الذي نتبادلُ

- هل كنتَ تعرفُ ؟ - كنتُ أَعرف أَن بُركاناً سيرسم صورةَ

الكون الجديدةَ. - لم تَقُلْ شيئاً وأَنتَ بريدُ هذيَ الأَرض. - كنتُ أَحاوِ

فيه من الأَشباح ما يكفي ليبحث في المقابر عن حبيبِهْ

. . كانت له أُمٌّ، وكان له جنوبٌ يستقرُّ على هُبُوبِهْ

كانت له أسطورةُ الحَدْسِ المتوَّجِ بالمياه. . وفي دروبِهْ

مَلِكٌ وإمرأَة. . وجيشٌ يحرس الصبواتِ في الجسدين من أحلامنا

ولنا من الصحراء ما يكفي لنُعطيّه زمام سرابنا وغمامِنَا

ومن الهشاشة ما سيكفي كي نسلّمه منامَ منامِنا

خُذْنَا، لقد هَهَّ اللسانُ فكيف نمتدح الذي طلب المديحْ

ومديحُهُ فيهِ. وفيه الكلُّ للكلِّ. آعترفنا أَننا بشرٌ، وذُبْنا

في هذه الصحراء حُبّاً. أَين نخلتُنا لنعرف في التُمُور قلوبَنا ؟

واللَّهُ أَجْمَلُ من طريق اللَّه. لكن الذين يسافرونْ

لا يرجعون من الضياع لكي يضيعوا في الضياع. ويعرفونْ

أَن الطريق هو الوصول إلى بدايات الطريق المستحيلْ

يا هُدْهدَ الأَسرار، جاهِدْ كي نشاهدَ في الحبيب حبيبَنَا

هي رحلةٌ أَبدية للبحث عن صفة الذي ليست لَهُ

صِفَةٌ. هو الموصوفُ خارجَ وَصْفِنا وَصِفَاتِهِ. حلِّقْ بنا

لم تَبْقَ مِنَّا غيرُ رحلتنا إليه. إليه نشكو ما نُكابد في الرحيل

دَمُنا نبيذُ شُعوبِهِ فوق الرخام وفوق مائدة الأَصيل

«لا أَنتَ إلا أَنتَ» فاخطِفْنا إليك إذا أَذِنْتَ، ودُلَّنا

يوماً على الأَرض السريعة قبل دَوْرَتنا مَعَ العَدَم العميق، ودُلَّنا

يوماً على شَجَرٍ وُلِدْنا تحته، سِرّاً، ليُخْفيَ ظلَّنا

وعلى الطفولة دُلَّنا. وعلى يمام زافَ أَوَّلَ مرةٍ ليُذِلَّنا

يَفَعَ الصغارُ ولم يطيروا مثله. يا لَيْتَنَا. يا لَيْتَنَا. ولعلَّنا

سنطير في يوم من الأَيام. . إنَّ الناسَ طَيْرٌ لا تطيرُ

والأَرضُ تكبر حين نجهلُ، ثم تصغر حين نعرف جهلنا

لكننا أَحفادُ هذا الطين، والشيطان من نار يحاول مثلنا

أَن يُدْرِكَ الأَسرارَ عن كَثَبٍ ليحرقنا ويحرق عقلنا

والعقل ليس سوى دخان، فليضعْ ! إنَّ القلوبَ تدلُّنا

خُذْنَا إذاً يا هُدْهُدَ الأَسرار نحو فَنَائنا بِفِنائه. حلِّقْ بنا

واهبطْ بنا، لنودِّعَ الأُمَّ التي انتظرتْ دهوراً خيْلنا

لتموت غبَّ النور أَو تحيا لنيسابورَ أَرملةً تُزيِّن ليلنا

هي «لا تريد من الإله ـ اللَّه إلاَّ اللَّه». . خذْنا !

والحبُّ أن لا يُدْرَكَ المحبوبُ. أَرْسَلَ عاشقٌ لفتاته

فَرَسَ الغياب على صدى النايات واختصر الطريق : «أَنا هِيَ»

وهي «الأَنا» تنسلُّ من يأسٍ إلى أَملٍ يعود إليَّ يأسا

لا تنتهي طُرُقي إلى أَبوابها. . طارتْ أَنايَ «فلا أَنا إلاَّ أَنا. . »

لا تنتهي طُرُقي إلى أبوابها، لا تنتهي طُرُق الشعوبِ ـ

إلى الينابيع القديمةِ ذاتِها. قُلْنا: ستكتملُ الشرائعُ ـ

عندما نجتازُ هذا الأَرخبيلَ ونعتقُ الأسرى من الأَلواحِ ـ

فلْيَجْلِسْ على إيوانِهِ هذا الفراغُ ليكمل البشريُّ فينا هجرتَهْ. .

عَمَّنْ تفتِّشُ هذه الناياتُ في الغابات؟ والغرباء نحنُ

ونحن أَهْلُ المعبد المهجور مهجورون فوق خيولنا البيضاءِ ـ

ينبت فوقنا قَصَبٌ وتعبر فوقنا شهُب ونبحث عن محطتنا الأخيرةْ

لم تبق أَرضٌ لم نعمِّر فوقها منفى لخيمتنا الصغيرةْ

هل نحن جِلْدُ الأَرض ؟ عَمَّنْ تبحثُ الكلماتُ فينا

وهي التي عقدَتْ لنا في العالم السفليّ محكمةَ البصيرةْ

وهي التي بَنَتِ المعابدَ كي تُروِّضَ وحش عزلتها بمزمارٍ وصورةْ

وأَمامنا آثارُنا. ووراءنا آثارُنا. وهنا هناك. وأَنبأَتْنا الكاهناتُ

أَن المدينةَ تعبدُ الأَجدادَ في الصين القديمة. أَنبأَتنا الكاهناتُ :

الجدُّ يأخُذُ عَرْشَه مَعَهُ إلى القبر المقدَّس، يأخذُ -

الفتياتِ زوجاتٍ وأَسرى الحرب حُرّاساً لَهُ. قد أَنبأَتنا الكاهناتُ

أَن الأُلوهةَ توأَمُ الإنسان في الهند القديمة. أنبأتنا الكاهناتُ

ما أَنبأَتنا الكائناتُ به.. «وأَنتَ تكون أَيضاً مَنْ هُوَ»

لكننا لم نُعْلِ تِينَتَنَا ليشنقنا عليها القادِمُون من الجنوبْ

هل نحن جلدُ الأَرض ؟ كُنَّا إذ نَعَضُّ الصخْرَ نفتحُ -

حَيِّزاً للفُلِّ. كنا نحتمي باللّه من حُرَّاسه ومن الحروبْ

كنا نصدِّقُ ما تعلَّمْنا من الكلمات. كان الشعر يهبطُ -

من فواكِهِ لَيْلنا، ويقودُ ماعزنا إلى المرعى على درب الزبيبْ

الفجْر أزرقُ، ناعمٌ، رطبٌ. وكُنَّا حين نحلُمُ نكتفي

بحدود منزلنا : نرى عَسَلاً على النخروب، نَجْنِيه. نرى

في النوم أنَّ مُرَبَّعات السمسم آكتنزتْ، فننْخُلُهَا. نرى

في النوم ما سنراه عند الفجر. كان الحُلْمُ منديلَ الحبيبْ

لكننا لم نُعْلِ تِينَتَنَا ليشنقنا عليها القادمون من الجنوبْ

أنا هُدْهُدٌ ـ قال الدليل ـ وطارَ منَّا. طارت الكلماتُ ـ

منا. قبْلَنا الطوفان. لم نَخْلَعْ ثيابَ الأرضِ عنَّا ـ

قبْلَنا الطوفانُ. لم نبدأ حروبَ النفس بعدُ. وقبلنا

الطوفانُ. لم نحصدْ شعيرَ سهولنا الصفراءِ بعدُ.

وقبْلَنا الطوفانُ. لم نَصْقُلْ حجارتنا بقَرْنِ الكبشِ بعدُ.

وقبْلَنا الطوفانُ. لم نيأس من التفاح بعدُ. ستنجب

الأُمُّ الحزينةُ إخوةً من لحمنا لا من جذوع الكستناء ولا

الحديد. ستنجب الأُم الحزينة إخوةً ليعمِّروا منفى

النشيدِ. ستنجب الأُم الحزينة إخوةً كي يسكنوا

سعفَ النخيل إذا أرادوا أو سطوح خيولنا. وستنجب

الأُمُّ الحزينةُ إخوةً ليتوِّجُوا هَابيلَهُمْ ملكاً على عرش الترابْ

لكنَّ رحلتنا إلى النسيان طالت. والحجاب أَمامنا غطى الحجابْ

ولَعَلَّ منتصفَ الطريق هو الطريق إلى طريق من سحابْ

ولعلنا، يا هُدهدَ الأَسرار، أَشباحٌ تفتِّش عن خرابْ

قال : اتركُوا أَجسادكم كي تتبعوني واتركوا الأَرض ـ السرابْ

كيْ تتبعوني. واتركوا أَسماءكم. لا تسأَلوني عن جوابْ

إن الجوابَ هو الطريقُ ولا طريقَ سوى التلاشِي في الضبابْ

هل مَسَّكَ «العَطَّارُ» بالأَشعار؟ قلنا. قال : خاطَبَني وغابْ

في بطن وادي العشق. هل وقف «المعرِّيْ» عند وادي المعرفةْ؟

قلنا. فقال : طريقُهُ عَبَثٌ. سألنا : وابن سينا.. هل أَجابَ

عن السؤال وهل رآكَ؟ ـ أَنا أُرَى بالقلب لا بالفلسفةْ

هل أَنت صوفيٌّ إذاً؟ أَنا هدهدٌ. أَنا لا أريد. «أَنا أريدْ

أَن لا أريد». . وغاب في أَشواقه : عذَّبْتَنَا

يا حبُّ. من سَفَرٍ إلى سَفَرٍ تُسَفِّرنا سدى. عَذَّبتنَا،

غَرَّبتنا عن أَهلنا، عن مائنا وهوائنا. خَرَّبتنَا. أفرغتَ
ساعات الغروب من الغروب. سلبتنَا كلماتنا الأُولى.
نهبْتَ شُجَيْرةَ الدُرَّاق من أَيامنا، وسلبتنا أَيامنا. يا
حُبُّ قد عَذَّبتَنا، ونهبتنَا. غرّبْتنَا عن كُلِّ شيء واحتجبْتَ
وراء أوراق الخريف. نهبتنا يا حب. لم تترك لنا شيئاً
صغيراً كي نُفَتِّش عنكَ فيهِ وكي نقبِّل ظلَّه، فاتركْ
لنا في الروح سنبلةً تحبُّكَ أَنت. لا تَكْسِر زُجَاجَ
الكون حول نِدائنا. لا تضطربْ. لا تصطخبْ. واهدأْ
قليلاً كي نرى فيك العناصرَ وهي ترفع عُرْسَهَا الكُليَّ
نحوك. واقتربْ منا لنُدرك مَرَّةً: هل نستحقُّ
بِأَن نكون عبيدَ رَعْشَتِكَ الخفيةِ؟ لا تبعثر ما
تبقَّى من حُطام سمائنا. يا حبُّ قد عذّبتنا، يا
حبُّ، يا هِبَةً تُبَدِّدُنا لترشد غيبنا فيهبّ..
هذا الغيب ليس لنا وليس لنا مَصَبُّ النهر،
والدنيا تهبُّ أَمامنا ورقاً من السّرْوِ القديم ليُرْشدَ

الأَشواقَ للأَشواق. كم عذَّبتنَا يا حُبُّ، كم غيَّبْتَنَا
عن ذاتنا، وسلبتَنَا أَسماءنا يا حُبُّ. .

قال الهدهدُ السكرانُ: طيروا كي تطيروا. نحن عُشَّاقٌ وحَسْبْ
قلنا: تَعِبْنَا من بياض العشق واشتقنا إلى أُمّ ويابسةٍ وأَبْ
هل نحن مَنْ كنا وما سنكون ؟ قال : توحَّدوا في كل دربْ
وتبخَّروا تصِلُوا إلى مَنْ ليس تدركه الحواسُّ. وكُلُّ قلبْ
كونٌ من الأَسرار. طيروا كي تطيروا. نحن عُشَّاقٌ وحسبْ
قلنا، وقد مِتْنا مراراً وانتشيْنَا : نحن عُشَّاقٌ وحسبْ.

منفىً هي الأَشواقُ. منفىً حُبُّنا. ونبيذُنا مَنْفىً. ومنفَى
تاريخُ هذا القلبِ. كم قُلْنا لرائحةِ المكان: تَحَجَّرِي لننام. كم
قلنا لأَشجار المكان تجرَّدي من زِينَةِ الغزوات كي نجد المكانْ
واللامكانُ هو المكانُ وقد نأى في الروح عن تاريخهِ. . .
منفىً هِيَ الروحُ التي تنأى بِنَا عن أرضنا نحو الحبيبْ
منفىً هِيَ الأَرضُ التي تنأى بنا عن روحنا نحو الغريبْ
لم يَبْقَ سَيْفٌ لم يجد غِمْداً له في لحمنا

والإخوةُ ـ الأعداءُ منا أَسْرَجُوا خَيْلَ العَدُوِّ ليخرجوا من حُلْمِنا

منفىً هو الماضي : قَطَفْنا خوخَ بهجتنا من الصيف العقيمْ

منفىً هي الأَفكارُ: شاهدنا غداً تحت النوافذ فاخترقنا

أسوارَ حاضرنا لنبلغه فأصبح ماضياً في دِرْعِ جُنْديٍّ قديمْ

والشعرُ منفى حين نَحْلُمُ ثم ننسى حين نصحو أين كنا

هل نستحقُّ غزالةً ؟ خُذْنا إلى غَدِنا الذي لا ينتهي

يا هُدْهُدَ الأَسرارِ ! علِّقْ وقتنا فوق المدى. حلِّقْ بنا

إنَّ الطبيعةَ كُلَّها روحٌ، وإن الأَرضَ تبدو من هنا

ثدْياً لتلك الرعشة الكبرى، وخيلُ الريح مركبةٌ لنا

يا طيرُ. . طيري كي تطيري فالطبيعةُ كُلُّها رُوحٌ. ودوري

حول افتتانِك باليدِ الصفراءِ، شمسِكِ، كي تذوبي واستديري

بعد احتراقك اِنَحْوَ تلك الأَرض، أرضِكِ، كي تنيري

نَفَقَ السؤال الصلْب عن هذا الوجود وحائطِ الزَمَن الصغيرِ

إنَّ الطبيعةَ كُلَّها روحٌ، وروحُ رقصةُ الجَسَدِ الأَخيرِ

طيري إلى أَعلى من الطيران. . أَعلى من سمائِك. . كي تطيري

أَعلى من الحُبِّ الكبير. . من القَدَاسَةِ. . والأُلوهةِ. . والشعورِ
وتحرَّري من كُلِّ أَجنحةِ السؤالِ عن البدايةِ والمصيرِ
الكونُ أَصغرُ من جناح فراشَةٍ في ساحة القلب الكبيرِ
في حَبَّة القمح التقيْنَا، وافترقْنَا في الرغيف وفي المسيرِ
مَنْ نحنُ في هذا النشيدِ لِنَسْقُفَ الصحراءَ بالمطر الغزيرِ ؟
مَنْ نحن في هذا النشيد لنُعْتِقَ الأَحياءَ من أسر القبورِ؟
طيري بأَجنحةِ انخطافِك، يا طيورُ، على عواصفَ من حريرِ
للكِ أن تطيري مثل نشوتنا. يناديكِ الصدى الكونيُّ : طيري
للكِ وَمْضَةُ الرؤيا. سنهبط فوق أنفسنا. . سنرجع إن صَحَوْنا
سنزور وقتاً لم يكن يكفي مَسَرَّتَنا ولا طَقْسَ النُشُورِ
مَنْ نحن في هذا النشيد لنلتقي بنقيضهِ باباً لسورِ
ما نفْع فِكْرَتنا بلا بَشَرٍ ؟ ونحن الآن من نارٍ ونورٍ ؟
أَنا هُدْهُدُ ـ قال الدليل ـ ونحن قلنا : نحن سِرْبٌ من طيورِ
ضاقتْ بنا الكلماتُ أَو ضقنا بها عطشاً وشرَّدنا الصدى
وإلى متى سنطِير ؟ قال الهدهدُ السكرانُ : غايتُنَا المدى

قلنا : وماذا خلْفَه ؟ قال المدى خلفَ المدى خلفَ المدى

قلنا : تعبنَا. قال : لن تجدوا صنوبرةً لترتاحُوا. سدى

ما تطلبون من الهبوط، فحلّقوا لتُحَلِّقوا. قلنا : غداً

سنطيرُ ثانيةً. . فتلك الأَرضُ ثديٌ ناضجٌ يمتصُّه هذا الغمامُ

ذَهَبٌ يَحُكُّ الرعشةَ الزرقاءَ حول بيوتنا. هل كان فيها ـ

كلُّ ما فيها ولم نعرفْ ؟ سنرجع حين نرجع كي نراها

بعُيونِ هُدْهُدِنا وقد مَسّت بصيرتَنا. سلامٌ حولها ولها السلامُ

ولها سريرُ الكون مفروشٌ بقُطن الغيْمِ والرؤيا. تنامُ

وتنامُ فوق ذراعها المائيِّ سيدةً لصورتها وصورتنا. لها

قَمَرٌ صغيرٌ مثل خادمها يمشّط ظلَّها. ويمرُّ بين قلوبنا

خوفاً من المنفى ومن قَدَرِ الخرافة، ثم يُشعِلُهُ الظلامُ

سَهَراً لحال النفس قرب المُعجِزات. أَمِنْ هنا وُلِدَ الكلامُ

ليصير هذا الطينُ إنساناً ؟ عرفناها لننساها وننْسى

سَمَكَ الطفولة حول صُرَّتها. أَعن بُعْدٍ نرى ما لا نَرَى

في القرب ؟ كم كانتْ لنا الأَيامُ أَحصنةً على وَتَرِ اللغةْ

كم كانتِ الأَنهارُ ناياتٍ ولم نَعْلَمْ. وكم سَجَنَ الرخامُ

مِنّا ملائكةً ولم نعرفْ. وكم ضَلَّتْ هنا مصرٌ وشامُ

للأَرضِ أَرضٌ كان هُدْهُدُنا سجيناً فوقها. في الأَرض روحُ -

شَرَّدَتْها الريحُ خارجها. ولم يترك لنا نوحُ الرسائلَ كُلَّها

ومشى المسيحُ إلى الجليل فصفَّقَتْ فينا الجروحُ. هنا اليمامُ

كلماتُ موتانا. هنا أَطلال بابل شامةٌ في إبْطِ سيرتِنا. هنا

جَسَدٌ من التفاح يسبح في المجرَّة. والمياهُ له حِزامُ

يسري مع الأَبد المجسّد في مدائحنا، ويرجع نحو ذاتِهْ

أُمّاً تُغَطّينا بِفَرْوِ حنانها العاري، وتُخْفي ما فَعَلْنا بالرئةْ

وبنار وردتِهَا، وتخفي حربَ سيرتنا، وما صَنَعَ الحسامُ

بخريطة الأَعشاب حول شواطىء الزغَبِ المقدّس. أُمُّنا هي أُمُّنا

أُمُّ الإثنييّن والفُرْس القدامى أمُّ أَفلاطون زارادشت أفلوطين أمّ السهرورْدِي

أُمُّ الجميعِ. وكُلُّ طفلٍ سيّدٌ في أُمه. ولها البداية والختامُ

وكأَنها هِيَ ما هِيَ الميلادُ إن شاءتْ، وإن شاءتْ هِي الموتُ الحرامُ

أَطعمتِنا وأكلتِنا يا أُمَّنا كي تُطْعِمي أَولادَنا يا أُمَّنا، فمتى الفِطامُ؟

يا عنكبوت الحُبِّ. إن الموتَ قتلٌ. كم نحبُّك كَمْ نحبُّك فارحمِينَا

لا تقتلينا مرةً أُخرى ولا تلدي الأَفاعي قرب دِجْلة. . واترُكِينَا

نسري على غزلان خصْرك قرب خصْركِ، والهواءُ هو المقامُ

واستدرجينَا مثلما يُسْتَدْرَجُ الحَجَلُ الشقيُّ إلى الشِباك، وعانقِينَا

هل كنتِ أَنتِ قبيل هجرتنا ولم نعرف؟ يغيِّرنا الهيامُ

فنصير مثل قصيدة فتحتْ نوافذَهَا ليحملَها ويُكمِلها الحمامُ

معنىً يُعيد النسْغَ للشجر الخفيِّ على ضفاف الروح فينَا. .

طيري، إذاً، يا طَيْرُ في ساحات هذا القلب طيري

ما نَفْعُ فِكْرَتنا بلا بَشَرٍ. . ونحن الآن من طين ونور؟

ـ هل كنتَ تعرف أَيَّ تاجٍ فوق رأسك؟ ـ قَبْرُ أُمِّي

وأَنا أَطيرُ وأَحملُ الأَسرار والأَخبار أُمِّي فوق رأسي مهرجانُ. .

هُوَ هُدْهُدٌ، وهو الدليل وفيه ما فينا، يعلِّقه الزمانُ

جرساً على الوديانِ. لكنّ المكان يضيق في الرؤيا وينكسر الزمانُ

ماذا ترى. . ماذا ترى في صورة الظل البعيدةِ؟

ـ ظِلَّ صورته علينا فلْنحلِّقْ كي نراه، فلا هُو / إلاَّ هُوَ.

«يا قلب.. يا أُمِّي ويا أُختي» ويا امرأتي تدفَّقْ كى تراهُ

وله.. لهدْهُدِنَا عُروشُ الماء تحت جَفَافِهِ تَعْلُو ويعلو السنديانُ

للماء لَوْنُ الحَقْل يرفَعُهُ النسيمُ على ظهور الخيل فجْرًا

للماءِ طَعْمُ هَديَّة الإِنشاد وهو يَهُبُّ من بستان ذكرى

للماءِ رائحةُ الحبيب على الرخام تزيدنا عَطَشاً وسُكْرا

للماءِ شَكْلُ هُنَيْهَةِ الإِشراق حين تَشُقُّنا نِصْفَيْنِ: إنساناً وطيْرًا

وله.. لهُدْهُدِنَا خيولُ الماء تحت جفافه تعلو، ويعلو الصولجانُ

وله.. لهُدْهُدِنَا زمانٌ كان يحمله، وكان له لسانُ

وله.. لهُدْهُدِنَا بلاد كان يحملها رسائلَ للسماوات البعيدةْ

لم يَبْقَ دِينٌ لم يجرِّبْهُ ليمتحن الخليقةَ بالرحيل إلى الإلهْ

لم يَبْقَ حُبٌّ لم يعذبه ليخترق الحبيبَ إلى سواهْ

وهو المسافر دائماً. مَنْ أَنتَ في هذا النشيد ؟ أَنا الدليلُ

وهو المسافر دائماً. من أَنت في هذا النشيد ؟ أَنا الرحيلُ

«يا قلب.. يا أُمي ويا أُختي» تدفقْ كي يراكَ المستحيلُ ـ

وكي تراه وتأخذاني نحو مرآتي الأَخيرة. قال هُدهُدُنَا وطارْ

هل نحن ما كنا ؟ على آثارنا شَجَرٌ وفي أسفارنا قَمَرٌ جميلُ

ولنا حياةٌ في حياة الآخرين هناك. لكنا أتيْنَا ـ

مُكْرهين إلى سمرقَنْدَ اليتيمةِ. ليس في أجدادنا مَلِكٌ نُعِيدُهْ

تركتْ لنا الأيام إرْثَ الناي فِي الأيام.. أقربُهُ بَعيدُهْ

ولنا من الأمطار ما لشُجيْرَةِ اللبلاب. نحن الآن ما كنا وعُدْنَا

مُكرهينَ إلى الأساطير التي لم تَتَّسع لوصُولِنَا، لم نستطعْ

أن نَحْلِبَ الأغنامَ قرب بيوتنا، ونُرَتِّبَ الأيام حول نشيدنا

ولنا هناك معابدٌ، ولنا هنا رَبٌ يمجده شهيدُهْ

ولنا من الأزهار «مِسْكُ الليل» يُوصِدُهُ نهارٌ لا يريدُهْ

ولنا حياةٌ في حياة الآخرين. لنا هنا قمحٌ وزيتٌ ـ

نحن لم نقطع من الصفصاف خيْمَتَنَا، ولم نصنع مِنَ ـ

الكبريت آلهةً ليعبدها الجنود القادمون. لقد وجدْنا ـ

كلَّ شيء جاهزاً: أسماءنا مكسورةً في جَرَّةِ ـ

الفُخَّار. دَمْعَ نسائنا بُقَعاً من التوت القديم على

الثياب. بنادقَ الصيد القديمة. واحتفالاً سابقاً لا نستعيدُهْ

القَفْر مكتظ بآثار الغياب الآدميِّ. كأَنَّنا كُنَّا هنا

وهنا من الأَدوات ما يكفي لننصب خيمةً فوق الرياحْ

لا وَشْمَ للطوفان فوق تَجَعُّدِ الجَبَلِ الذي اخضرَّتْ حدودُهْ

لكنَّ فينا أَلفَ شعبٍ مَرَّ ما بين الأَغاني والرماحْ

جئنا لنعْلَم أَننا جئنا لنرجِعَ من غياب لا نريدُهْ

ولنا حياةٌ لم نُجَرِّبْها، وملحٌ لم يخلِّدنا خلودُهْ

ولنا خطى لم يَخْطُها مِنْ قبلنا أَحَدٌ.. فطيري

طيري، إذاً، يا طيرُ في ساحات هذا القلب طيري

وتجمعِي من حول هُدْهُدِنَا، وطيري.. كي.. تطيري!

أرى ما أريد

المحتويات

صمم الغلاف : الفنان نبيل قدوح